

قال - رحمه الله - : [٧٩ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول) .]

هذا الحديث اشتمل على سنة من سنن النبي ﷺ - فيمن سمع الأذان، وهذه السنة أمر بها النبي ﷺ - على سبيل الندب والاستحباب، لعظيم ما أعد الله فيها من الأجر والثوبة وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام : ((إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني ثم سلوا لي الوسيلة فإنه من سأل لي الوسيلة فقد حلت له شفاعتي)) وهذا يدل على أن السنة إذا أذن المؤذن أن يقول السامع مثل ما يقول المؤذن، وإذا فرغ المؤذن من أذانه وكملت متابعتها للمؤذن في الألفاظ فالسنة أن يتدئ أولاً بالصلاة على النبي ﷺ -، ثم بعد ذلك يدعو بالدعاء المأثور : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته . فإذا حصل ذلك فإن النبي ﷺ - قال : ((فإنه من سأل لي الوسيلة فقد حلت له شفاعتي)) .

وقوله : [(مثل ما يقول)] فيه دليل على مسألتين :

المسألة الأولى : أن السامع يقول نفس اللفظ الذي يقوله المؤذن، فإذا قال المؤذن : الله أكبر قال السامع : الله أكبر، وظاهر هذا أنه إذا قال المؤذن : حي على الصلاة حي على الفلاح، قال السامع : حي على الصلاة حي على الفلاح، ولكن هذا الإطلاق ورد ما يقيده، وذلك في حديث معاوية وغيره -رضي الله عن الجميع- أن النبي ﷺ - لما سمع المؤذن قال مثل ما قال المؤذن ثم لما قال المؤذن : حي على الصلاة حي على الفلاح قال عليه الصلاة والسلام : لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال المؤذن : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال النبي ﷺ - مثل قوله، ولذلك ذهب الجمهور إلى أن السامع إذا سمع المؤذن في الحيعلتين فإنه لا يقول مثل ما يقول المؤذن، وإنما يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله، لثبوت النص بالتفصيل، والقاعدة : أن النص إذا ورد على سبيل الإجمال وورد غيره على سبيل التفصيل والبيان فإنه يقدم النص المفصل على النص الجمل الذي ليس فيه البيان، فحديثنا أجمل وقال : [(فقولوا مثل ما يقول)] والأحاديث الأخر الصحيحة فصلت وبينت أنه عند الحيعلتين يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ولا يقول مثل ما يقول المؤذن، وقال بعض العلماء : يجمع بين العبارتين فيقول : حي على الصلاة لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا محل نظر؛ لأن النبي ﷺ - اجتزأ بالحوقلة وهي قوله : لا حول ولا قوة إلا بالله ولم يجمع معها لفظ النداء، وعلى هذا فإن الصحيح أنه يقول عند الحيعلتين لا حول ولا قوة إلا بالله، قال بعض أهل العلم -رحمهم الله- : إنما يقول لا حول ولا قوة إلا بالله لأن قوله : "حي على الصلاة، حي على الفلاح" مناسب للمؤذن وغير مناسب للسامع، فإن هاتين الجملتين

يقصد منهما الدعوة إلى الصلاة، والسامع ليس بداعٍ إلى الصلاة فاختص الحكم بالمؤذن دون السامع، فناسب إذا سمع المكلف هذه العبارة أن يقول الحوقلة وفيها مناسبة ظاهرة قال بعض أهل العلم : إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله كأنه قد دعى إلى الصلاة فهو يقول : لا أستطيع أن أقوم بأمر الله، وأجيب داعي الله إلا بحول من الله وقوة، ففيها براءة من الحول والقوة، والبراءة من الحول والقوة تعين الإنسان على فعل الخير، وتيسره - بإذن الله - له فإن العبد كلما أسلم أمره لله على سبيل الكمال فإن الله يعينه ويوفقه ويسدده، ولذلك كان من دعائه المأثور ﷺ : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين . فإذا كان الإنسان لا يتكل على نفسه ولو في فعل الخير، وإنما يفوض الأمر إلى الله ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله وإذا هم بالأمر في مستقبله قال : إن شاء الله وبإذن الله كل ذلك مما يحبه الله ويرضاه لما فيه من التوحيد واليقين بالله - ﷻ - وحسن الظن به جل وعلا، ولذلك أخبر ﷺ أن هذه الكلمة اليسيرة الخفيفة على اللسان لكنها ثقيلة في الميزان عظيمة الأجر عند الرحمن ولذلك أخبر أنها كنز من كنوز الجنة، فالجنة أعظم ما أعد الله لعباده في الآخرة من النعيم المقيم والسرور الكريم، ومع ذلك جعلها النبي - ﷺ - كنزاً من كنوز الجنة، فإذا قالها المسلم ينبغي أن يستشعر ما فيها من المعنى، قال بعض العلماء : لا حول أي لا تحول من حال إلى حال، فهو مأخوذ من التحول، أي لا أستطيع أن أتحول من شر إلى خير، ولا أتحول من خير إلى أخير، ومن صلاح إلى أصلح إلا بالله، فهو يبرأ من الحول والقوة إلا بمعونة الله - ﷻ - وتوفيقه وتأيدته، وقوله : ولا قوة . أي لا معونة، فإن القوة هي التي يستعين بها الإنسان بعد الله - ﷻ - في تحصيل الخير ودفع الشر، فقد يكون الإنسان محباً للخير، وقد يكون محباً للطاعة، حريصاً عليها ولكن الله لا يعطيه القوة لكي يعملها، فكم من إنسان يحب الصيام وهو لا يستطيعه لضعف في جسده، أو كبير في سنه، وكم من مسلم يتمنى قيام الليل ولكن الله لا يعينه فلا تكون عنده قوة العزيمة وقوة الإرادة وقوة الجسد أيضاً، فلا حول ولا قوة إلا بالله هذه كلمة عظيمة، وإذا قالها الإنسان كأنه لما دعى إلى الصلاة ودعى إلى الخير برئ من الحول والقوة وأسلم الأمر لله - ﷻ -، والله يحب من عبده ذلك، ولذلك ورد في الخبر أن الله أوحى إلى نوح أن اشكرني قال : يا رب كيف أشكرك، وشكرك نعمة تستحق الشكر، قال : أما وقد علمت أنك لن تستطيع شكري فقد شكرتني، فكلما كان الإنسان يحس من نفسه أنه لا يستطيع فعل الخير وأنه لا يستطيع دفع الشر إلا بالله - ﷻ - أعانه الله - سبحانه - وثبته ووفقه، فهذه الكلمة فيها مناسبة ولما كانت الصلاة أعظم ما في الإسلام بعد الشهادة وإقامة الصلاة يستقيم أمر العبد وحاله في الدنيا والآخرة، ولذلك أثنى الله - ﷻ - على من أقام هذه الفريضة، فمع كونها بهذه المنزلة العظيمة والمكانة الشريفة الكريمة فإن كل إنسان يعلم علم اليقين أن الطاعة كلما شرفت وكلما عظمت وجلت فإن الفتن حولها أعظم، ولذلك قال هذه الكلمة العظيمة وهو

يدعى إلى الصلاة، أي لا حول لي ولا قوة لإقامة هذه الفريضة العظيمة، ولذلك تجد الإنسان يُصرف عن الصلاة إما بسبب حظ نفسه أو حظ أهله وولده وشهوته، فالفتن في الصلوات كثيرة، ربما أن الإنسان يشغل عنها بالكلية -نسأل الله السلامة والعافية- حتى يخرج وقتها، وربما يشغل عنها حتى لا يصلّيها مع الجماعة ويصلّيها في آخر الوقت، وربما يشغل عنها إذا أراد أن يصلّيها مع الجماعة فيشغل عنها فلا يأتي إلا في آخر الركعات ما لم يكن عنده عذر، وربما شغل عنها فحيل بينه وبين أن يأتيها فيدرك تكبيرة الإحرام فيأتي في أثنائها، ولو أدركها من أولها فإنه قد يشغل عما هو أفضل وأكمل أن يؤذن للصلاة وهو في المسجد، فالمسلم إذا أراد أن يجيب داعي الله بالدعوة إلى هذه الصلاة مفتقر إلى حول الله وإلى قوة الله، ولذلك قال بعض السلف : علمت أن قوة الإنسان في نفسه . قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : ألم تروا إلى الرجل الشاب الصحيح القوي يدعى إلى الصلاة فلا يجيب، وترى الرجل الحطمة من المسلمين -يعني كبير السن- الحطمة يؤتى به يهادى بين الرجلين، لأن كبير السن مع ضعف جسده وضعف قوته أعانه الله بالقوة، وأمده بحوله فحرص على الصلاة فيأتي وهو يُحمل، وربما يأتي وهو يقاد بقوة وتعب ونصب ولكن الله أعطاه قوة النفس والصبر والجلد فبلغ الطاعة، وتجد الشاب وهو يرفل في نعم الله -عز وجل- آمناً في سره معافى في بدنه وعنده القوة والصحة ومع ذلك لا يجيب داعي الله -عز وجل- لأنه ضعيف النفس، وسلبه الله -عز وجل- قوة الإيمان فلم يجب داعي الله -نسأل الله السلامة والعافية- .

يقول عليه الصلاة والسلام : [(إذا سمعتم المؤذن)] المراد بالمؤذن الذي يؤذن بالصلاة وهو المؤذن المعهود، وإذا ثبت هذا فإن المؤذن ينبي عليه أنك لو سمعت ألفاظ الأذان تحكى كما لو كانت في درس علم أو سمعتها من شخص يحكيها في أذن مولوده أو نحو ذلك فإنك لا تقول مثل ما يقول، لأنه ليس بالمؤذن المعهود، فالمراد بقوله ﷺ : ((إذا سمعتم المؤذن)) أي المعهود الذي يؤذن بالصلوات على الوجه المعروف المعهود، ويتفرع على هذا أنه لو أذن حي شرع لك أن تردد وراءه على ظاهر قوله : [(إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول)] .

هذا الحديث باب خير وزيادة في طاعة وبر، والله -عز وجل- جعل في هذه الشريعة أبواب خير كثيرة، حتى في الأذان والنداء إلى الصلاة جعل الله -عز وجل- لك حسنة يثقل بها ميزانك، ويعظم بها أجرك عند الله -عز وجل-، فهذا الحديث جاء بزيادة خير للأمة، ولذلك يعتبر من فضائل الأعمال ونجد العلماء -رحمهم الله- يذكرون من فضائل الأعمال أن يحكى لفظ الأذان، وقال بعض العلماء : إن المؤذن أثنى الله -عز وجل- عليه فقال :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ قالوا : هو المؤذن، فشرَّك الله بين المؤذن والسماع فجعل للسماع حظاً من ذكر الله -عز وجل- بالثناء عليه بتوحيده بذكر شهادة التوحيد، والشهادة لرسول الأمة -ﷺ-، وهذا

كله يدل على شرف الأذان وفضله، قال بعض الشراح : في هذا الحديث دليل أيضاً على فضل شعيرة الأذان حيث لا تقتصر على المؤذن وحده، وإنما يشاركه السامع بحكاية ألفاظه حتى يكون له الأجر وتكون له المثوبة.